(١٧)
التعددية فى الإسلام[١]

● **الخطبة الأولى:**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

وحدانية الخالق:

يقوم التصور الإسلامى للوجود على حقيقتين أساسيتين:

الحقيقة الأولى: هى وحدانية الخالق. والحقيقة الثانية: هى تعددية الخلق.

على هذين الأساسين بنى الإسلام تصوره وعقيدته وفكرته عن هذا الوجود، الله وحده هو الواحد، وما عداه متعدد، هو واحد فى ذاته، وواحد فى صفاته، وواحد فى أفعاله، هو الخالق وحده، والمحيى والمميت وحده، وهو المعبود وحده، فلا يستحق العبادة غيره، ولا الاستعانة سواه ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة: ٥]، ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ [الإخلاص].

ولهذا كان التوحيد فى الإسلام هو جوهر هذا الدين، وهو أساس هذا البناء كله، التوحيد روح الوجود الإسلامى ﴿ **..يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ..** ﴾ [آل عمران: ٦٤]. وهذه كانت دعوة الأنبياء والمرسلين جميعا، كل الرسل دعوا قومهم إلى التوحيد ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ..** ﴾ [النحل: ٣٦] والطاغوت: كل ما يُعبد ويُعظم ويُطاع طاعة مطلقة من دون الله، سواء كان من البشر أم من غير البشر.

لقد حرر الإسلام البشرية من عبادة غير الله، من عبادة الأشياء أو عبادة

---

(١) ألقيت فى مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، فى ٣ من ذى القعدة سنة ١٤٢٤هـ الموافق ٢٦ من ديسمبر ٢٠٠٣م.

الذوات: عبادة الأشخاص، أو عبادة الأفلاك، أو عبادة الحيوان، أو عبادة الإنسان، أو عبادة الهوى والذات، وبكلمة موجزة: تحرير البشر من العبودية لغير الله.

كانت رسالة الأنبياء جميعا التى تركزت وتجسدت فى الدين الخاتم – الذى بُعث به محمد ﷺ – أن ينعم الناس بظلال الحرية، ويتنسموا نسيم الحرية، فقد كان يعبد بعضهم بعضا، ويَذل بعضهم لبعض، ولذلك رفع الإسلام الجباة أن تسجد لغير الله، والظهور أن تطأطىء لغير الله، فلا انحناء إلا لله راكعين، ولا تعفير لجبهة إلا لله ساجدين، وكانت رسائل النبى ﷺ إلى قيصر الروم وغيره من أمراء النصارى، تدعوهم إلى هذا التحرر، ويختمها بالآية الكريمة: ﴿ .. **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٦٤] هذه هى الحقيقة الأولى.

تعددية الخَلْق:

والحقيقة الثانية – وهى المقصودة بالحديث فى هذا اليوم بعد وحدانية الخالق – هى: التعددية، التعددية فى الخلق: التعددية العرقية، والتعددية اللسانية، والتعددية الدينية، والتعددية الثقافية، والتعددية الحزبية، كل هذه التعدديات شرعها الإسلام، أنت لست وحدك فى هذا الوجود، لست إلها حتى تكون متوحدا: لا شريك لك، ولا ندَّ لك، ولا كفؤ لك، ولا شبيه لك، لا، هناك آخرون يشاركونك، وينبغى أنه يفهم الناس هذه الحقيقة، أن هناك تعددا.

هناك تعدد فى الأجناس والعناصر، والله تعالى يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** .. ﴾ [الحجرات: ١٣] خلقناكم من ذكر وأنثى، كلكم أبناء آدم وحواء، وكلكم أبناء رجل وامرأة، وجعلناكم شعوبا وقبائل، هذا الشعب العربى، وهذا التركى، وهذا الشعب الهندى، وهذا الشعب الأفغانى وهذا الشعب الفارسى، شعوبا وقبائل لتعارفوا لتتفاهموا لتتعاونوا ،لا تتناكروا ولا تتصادموا ولا تتعادوا، هكذا خلق الله البشر عروقا وأجناسا كلها تنتمى لأب واحد هو آدم، وتنتمى

لرب واحد هو الذى خلقها وسواها، هو الله عز وجل، وهذا ما عرَّفه النبى ﷺ للألوف المؤلفة فى حجة الوداع حينما قال: «أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب»(١).

لابد أن يعترف الناس بأن هناك عروقا وأجناسا مختلفة، وليس لجنس سيادة على جنس؛ كما يدعى اليهود: أن الجنس الإسرائيلى هو شعب الله المختار، وعليه أن يسود العالم.

أو كما اعتقد بعض الفلاسفة اليونان: أن الناس يتفاوتون بحكم الخلقة، فمنهم شعب خلق ليسود ويقود ويحكم، وشعوب أخرى خلقت لتقاد وتُساق وتُحكم، هناك سادة وهناك عبيد.

أو كما اعتقد الآريون الأوربيون فى وقت من الأوقات، مثل هتلر وغيره، أن الجنس الآرى هو سيد الأجناس، لا بد أن يحكم العالم!

أو كما اعتقد رينان وغيره من الفلاسفة المُحْدَثين: أن الأجناس تتفاضل، فهناك جنس أفضل من جنس، وعرق خير من عرق.

لا، فهذه المقولات مرفوضة فى نظر الإسلام، إن الإسلام يقول: الناس سواسية كأسنان المشط متساوون فى العبودية لله، والبنوة لآدم. إنما يتفاوت الناس بالعلم والعمل والإحسان ﴿.. **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ..**﴾ [الزمر: ٩] ﴿**لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ..**﴾ [النساء: ٩٥] ﴿**قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ..**﴾ [المائدة: ١٠٠] الناس تتفاوت بعلمها، وبأعمالها، وبتقواها، وبفضائلها، وبما تقدمه للناس من خيرات وصالحات.

الأجناس كلها متساوية ويجب أن يسع بعضها بعضا، لا يحاول جنس أن يطغى على جنس، فضلا عن أن يُبيد جنسا آخر، كما رأينا الأوربيين عندما ذهبوا إلى أمريكا، أرادوا أن يبيدو الجنس الأصلى الذى يسكن البلاد (الهنود الحمر)، وقامت مذابح إبادة هائلة.

---

(١) رواه أحمد (٦ / ٥٧٠) والطبرانى فى الأوسط (٤٧٤٩) عن أبى سعيد الخدرى، ورواه البيهقى فى (الشعب) (٥١٣٧) عن جابر بن عبد الله.

وكذلك عندما دخلوا أستراليا أعملوا سيف الإبادة فى أهلها الأصليين! وحينما دخلوا بلادا شتى حاولوا أن يبيدوا عناصر أخرى وأجناسا أخرى! ليس من حق جنس أن يحكم على جنس بالإبادة. هذا خلق الله، لهم حقٌ فى الاستخلاف فى هذه الأرض وعمارتها، كما لكم حقوق فى العيش عليها.

بل إن رسول الإسلام ليعلن هذه الحقيقة الكبيرة: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها»(١) حتى أمم الحيوان لا ينبغى أن تباد،وإن كانت تؤذى الإنسان أحيانا، والرسول هنا يشير إلى الحقيقة القرآنية التى سجلها القرآن فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم..** ﴾ [الأنعام: ٣٨].

التعددية اللسانية واللغوية:

هناك التعددية العرقية، وهى حقيقة من الحقائق، وهناك التعددية اللسانية: أن الله خلق الناس تختلف ألسنتهم ولغاتهم، القرآن يقول: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ** ﴾ [الروم: ٢٢] هذا يتكلم بالعربية، وهذا بالفارسية، وهذا بالهندية، والهندية فيها مئات اللغات، وهذا يتكلم بالتركية أو بالسواحلية، فالناس يتكلمون بلغاتهم ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ..** ﴾ [إبراهيم: ٤] حتى الرسالة العالمية - رسالة الإسلام، ورسالة القرآن - جاءت بلسان عربى مبين، كيف نبلغها إلى العالم؟ نترجم إلى العالم هذه الرسالة حتى يعرفوها، ولكن لا بد أن نعترف أن هناك لغات شتى، وألسنة شتى مختلفة يتحدث بها الناس، وهذه آية من آيات

---

(١) رواه الترمذى فى الصيد (١٤٨٩) وقال: حسن صحيح، وأبو داود فى الصيد (٢٨٤٥) والنسائى فى الصيد (٤٢٨٠) وابن ماجة فى الصيد (٣٢٠٥) عن عبد الله بن مغفل. وذكره الألبانى فى صحيح الجامع (٥٣٢١).

وفى الحديث إشارة إلى حقيقة كونية قررها القرآن الكريم وهى: أن الكائنات الحية الأخرى - غير العاقلة - لها كينونتها الاجتماعية الخاصة، التى تميزها عن غيرها، وهذا يعنى أنها لم تخلق عبثاً، ولهذا فلا يحسن الأمر باستئصالها. راجع ما كتبناه فى كتابنا (السنة مصدراً للمعرفة والحضارة) طبعة دار الشروق القاهرة ط ١٩٩٧م، ص ١٤٦، وكتابنا: (رعاية البيئة فى شريعة الإسلام طبعة دار الشروق القاهرة ٢٠٠١م، ص ٩٢.

الله عز وجل، هناك تعددية لسانية ولغوية. ولا ينبغى لأحد أن يضيق بلغة غيره، أو يحاول أن يضيق عليها، أو يتعصب ضدها.

التعددية الدينية:

وهناك تعددية دينية. الله سبحانه وتعالى خلق الناس مختلفين، خلق لكل منهم عقلا يفكر به، ومنحه الإرادة ليرجح بها، ومنحه مَلَكات وقوى ومواهب مختلفة، على أساسها اختار الناس لأنفسهم. ولو شاء الله أن يجعل الناس كلهم مؤمنين به لفطرهم على التوحيد والإيمان كما فطر الملائكة، ولكن الله خلق من خلقه خلقا مفطورين على عبادته: ﴿ ..**لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [التحريم: ٦] ﴿ **يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٠] وهؤلاء هم الملائكة.

وخلق من خلقه نوعا ميزه بالإرادة والاختيار، هو الذى يقرر مصير نفسه ﴿ ..**فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا** .. ﴾ [يونس: ١٠٨] ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا** .. ﴾ [فصلت: ٤٦] ﴿ ..**فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** .. ﴾ [الكهف: ٢٩] ﴿ ..**لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا** ﴾ [الفرقان: ٦٢] أعطاه المشيئة والإرادة والاختيار والقدرة ليقرر مصيره، هذا النوع هو الإنسان، لم يشأ الله أن يجبره على دين واحد، وعلى الإيمان به، بل ترك له الحرية، أعطاه الأدوات التى يفكر بها، وبعث له الرسل، وأنزل له الكتب، لتعاونه فى اختيار الطريق، ولكنه ترك له الحرية، هكذا خلق الله الناس ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** .. ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] قال كثير من المفسرين: لذلك: أى للاختلاف خلقهم، لأنه خلقهم متغايرين فى الفكر والإرادة، فلا بد أن يتغايروا فى الدين الذى يختارونه، ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس: ٩٩]، لا، لا يكره الناس على شىء، فمن عهد سيدنا نوح قال لقومه: ﴿ .. **أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ** ﴾ [هود: ٢٨] أنلزمكم بالهداية؟ لا، أنتم أحرار فيما تختارون لأنفسكم.

خلق الله الناس على أديان مختلفة، ويجب أن يسع أهل الأديان بعضهم بعضا، لا يُجبر أناس على أن يتركوا دينهم ليعتنقوا دينا آخر ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ..** ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ولذلك ينبغى أن نسع المخالفين، لا يجوز لنا أن نقهرهم على أن يتبعوا ديننا، وكما لا نجيز لأحد أن يقهرنا على ترك ديننا، أو يمنعنا من طاعة ربنا، لا يجوز لأحد أن يتدخل فى دين أحد.

هذه التعددية الدينية هى التى قررها الإسلام منذ العهد المكى والعهد المدنى، هناك سورة جمعت بين أمرين قد يظنهما بعض الناس متناقضَيْن: الاعتزاز بالدين إلى أقصى حد، والتسامح فى الدين مع المخالف إلى أقصى حد، هذه السورة هى سورة (الكافرون)، السورة الوحيدة التى خاطب الله فيها الكافرين بعنوان الكافرين، فالله عز وجل يخاطب الكافرين عادة بـ: (يا أيها الناس) (يا عبادى) (يا بنى آدم)، ولكن قال فى هذه السورة: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ [سورة الكافرون].

كان المشركون يساومون النبى ﷺ ويفاوضونه، يريدونه أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، أى ليجرب كل منا دين الآخر! هذه المساومات أراد القرآن أن يقطعها بقرار حاسم، فهذا أمر مرفوض، ولذلك قال: ﴿ **لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** ﴾ هذا التكرار والتأكيد مقصود، لتثبيت النبى ﷺ والمؤمنين على دينهم والتشبث به، والاعتزاز به إلى آخر مدى. وفى آخر السورة يأتى هذا التسامح العجيب: ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ الحياة تتسع لى ولكم، وإن اختلفت أديانا. لكن المشركين المتعصبين قالوا له: لا، لنا ديننا، وليس لك دينك! هذا هو التعصب بعينه، أن تثبت نفسك، وتنفى من عداك.

هل هناك أديان غير الإسلام؟:

ولذلك خطأت بعض الإخوة الذين يقولون: لا دين غير الإسلام، مستدلين بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ [آل عمران: ١٩] لا مانع أن تعتقد

أن دينك هو الحق، فكل مؤمن بدين يعتقد أن دينه وحده هو الحق، ولا ملام على ذلك.

ومع هذا نقول: هناك أديان أخرى، حتى دين المشركين الوثنيين فالله قال لهم على لسان رسوله: ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ كذلك أهل الكتاب لهم دينهم ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ..** ﴾ [النساء: ١٧١] ﴿ **.. لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا..** ﴾ [المائدة: ٧٧].

هناك أديان أخرى وسعها الإسلام، وعاشت فى ظلال الإسلام قرونا: عاشت النصرانية، وعاشت اليهودية، وعاشت المجوسية، وعاشت الهندوسية، وغيرها من الديانات. والمسلمون كانوا هم سادة العالم، ولهم القوة الأولى فى الدنيا، وكانوا يستطيعون أن يفرضوا عليهم دينهم، وأن يقهروهم على الإسلام، لم يحدث ذلك أبدا، لأن الإسلام لا يقبل إيمانا فيه شائبة إكراه، الإيمان لا بد أن يكون اختيارا محضا، ولذلك لم يجبر غير المسلمين فى وقت من الأوقات على دخول هذا الدين، وهذا ما قرره المستشرقون الغربيون أنفسهم مثل: توماس أرنولد فى كتابه (الدعوة إلى الإسلام) الذى قال: لم يحدث فى تاريخ المسلمين أن جماعة أجبرت على أن تدخل في الإسلام إكراها أبدا،

كان هؤلاء يعيشون فى المسلمين كأهل ذمة، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، لهم كنائسهم، ولهم صلبانهم، ولهم نواقيسهم، ولهم أزياؤهم، ما أُجبر أحد على أن يغير زيه ليكون مثل المسلمين، بالعكس قيل: إنهم أمروا أن يلزموا زيهم ولا يغيروه، وحتى هذا غير ثابت. فالإنسان له الاختيار ما دمت تركت له دينه، فمن حقه أن يعيش بدينه، وأن يقيم شعائره، وأن يؤدى واجباته. بل من عجائب التسامح الإسلامى: أنه لا يجبر الإنسان على أن يترك مباحا له فى دينه ليجامل المسلمين بتركه، لم يجبره على أن يترك أكل الخنزير أو شرب الخمر، وسمح للنصارى فى بلاده أن يعيشوا فيها وهم يشربون الخمر، ويربون الخنازير، ويأكلون لحومها، وهو أمر مباح فى دينهم. حتى إن من أراق خمرا لذمى، يغرم قيمتها، كما يرى الإمام أبى حنيفة وأصحابه، وهى فى نظر المسلمين جميعا، أم الخبائث ورجس من عمل الشيطان!

هذا هو التسامح الحقيقى، التعددية الدينية تحتاج إلى التسامح، كيف يتسامح الإنسان وهو يعتقد أن دينه هو الحق، وأن غيره هو الباطل وأن ﴿ ..الدِّين عند اللَّه الإسْلامُ .. ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿ومن يبْتغِ غيْر الإسْلامِ دينًا فلن يُقْبل منْهُ.. ﴾ [آل عمران: ٨٥] لو كان يعتقد هذا كيف يتسامح مع غيره؟! هذا ما يحتاج إلى بيان، فقد يلتبس على كثيرين.

مفاهيم تعين المسلم على التسامح:

من روائع ما جاء فى الإسلام: أن المسلم برغم اعتزازه بإسلامه ﴿ومنْ أحْسنُ قوْلاً ممّن دعا إلى اللَّه وعمل صالحًا وقال إنَّني من الْمُسْلمين ﴾ [فصلت: ٣٣] رغم اعتزازه بالإسلام، ومباهاته بالإسلام، ومغالاته بالاعتزاز بهذا الدين، رغم هذا فقد غرس فيه الإسلام من العقائد والمفاهيم والأفكار ما يجعله يتعايش بتسامح منقطع النظير مع المخالفين له.

١ - الاختلاف واقع بمشيئة الله:

من هذه المفاهيم الأساسية: أنه علَّمه أن اختلاف الناس واقع بمشيئة الله ﴿هُو الَّذي خلقكُمْ فمنكُمْ كافرٌ ومنكُم مُّؤْمنٌ.. ﴾ [التغابن: ٢] هكذا خلق الله الناس، وأن هذا بمشيئة الله ﴿ولوْ شاء ربُّك لجعل النَّاس أُمَّةً واحدةً.. ﴾ [هود: ١١٨] وما دام هذا من مشيئة الله التى لا تنفصل عن حكمته، فلا يُعقل أن يقاوم الإنسان مشيئة الله، لأن مشيئة الله هى النافذة، وهى الغالبة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. ولهذا استراح المؤمن أن هذا هو ما يشاؤه الله، هل سنُعَدِّل على الله خلقه أو كَوْنه، وقد خلقه هكذا ؟! وهو الذى أحسن كل شىء خلقه ؟!

٢ - حساب الناس موكول إلى الله وحده:

الأمر الثانى: أن الناس إذا اختلفوا، آمنوا أو كفروا، اهتدوا أو ضلوا، صلحوا أو فسقوا، ليس حسابهم فى هذه الدار، وإنما هناك دار أخرى للحساب والجزاء، والذى يتولى الحساب والجزاء فيها هو: الله عز وجل، وهذا يطمئننا فإن الذى يجزى الجميع رب عادل لا يظلم أحد. يقول القرآن: ﴿وإن جادلُوك فقُلِ اللَّهُ أعْلمُ بما تعْملُون * اللَّهُ يحْكُمُ بيْنكُمْ يوْم الْقيامة فيما كُنتُمْ فيه تخْتلفُون ﴾ [الحج: ٦٨، ٦٩] ﴿فلذلك فادْعُ واسْتقمْ كما أُمرْت ولا تتَّبعْ أهْواءهُمْ وقُلْ آمنتُ بما

أنزلَ اللَّهُ من كتابٍ وأُمرتُ لأعدلَ بينكمُ اللَّهُ ربُّنا وربُّكمْ لنا أعمالُنا ولكُم أعمالُكُمْ لا حُجَّةَ بيننا وبينكمُ اللَّهُ يجمعُ بيننا وإليه المصيرُ ﴾ [الشورى: ١٥]. ﴿ إنَّ الَّذين آمنُوا والَّذين هادُوا والصَّابئين والنَّصارىٰ والمجُوس والَّذين أشركُوا إنَّ اللَّه يفصلُ بينهم يوم القيامة إنَّ اللَّه علىٰ كُلِّ شيْءٍ شهيدٌ ﴾ [الحج: ١٧].

٣ - احترام آدمية الإنسان:

الأمر الثالث: أن الإسلام يكرم الإنسان من حيث هو إنسان، فالإنسان من حيث آدميته مكرم فى هذا الدين ﴿ ولقدْ كرَّمْنا بني آدم وحملْناهُمْ في الْبرِّ والْبحرِ ورزقْناهُم مّن الطَّيِّبات وفضَّلْناهُمْ علىٰ كثيرٍ مّمَّنْ خلقْنا تفْضيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٠] فأسبغ الله على الإنسان نعمه ظاهرة وباطنة، وجعله خليفة فى الأرض، فالإنسان هو زبدة هذا الوجود، وهو الذى كرمه الله عز وجل بغض النظر عن لون عينيه، أو نعومة شعره أو جعودته، أو لونه أبيض أو أسود، أو أنفه كيف هى.

الإنسان مكرم عند الله من حيث هو إنسان، بغض النظر عن لونه أو عرقه أو طبقته، بل عن دينه، روى الشيخان فى صحيحيهما: أن النبى ﷺ مروا عليه بجنازة، فقام لها واقفا، فقالوا: يا رسول الله إنها جنازة يهودى! قالوا ذلك متعجبين من قيامه واحترامه لها، فقال ﷺ: «أليست نفسا؟!»[١] أليست نفسا بشرية، فما أروع الموقف، وما أروع التعليق! النفس البشرية مكرمة معصومة مصونة فى الإسلام ﴿ .. أنَّهُ من قتل نفْسًا بغيْرِ نفْسٍ أوْ فسادٍ في الأرْضِ فكأنَّما قتل النَّاس جميعًا ومنْ أحْياها فكأنَّما أحْيا النَّاس جميعًا .. ﴾ [المائدة: ٣٢] هذا هو الأمر الثالث الذى يمحو به الإسلام التعصب من نفسية المسلم، ويغرس فيها التسامح والأفق الواسع.

٤ - الإنصاف والعدل مع الجميع:

الأمر الرابع: أن الإسلام يأمر بالعدل مع الناس جميعا، مع من تحب، ومع من تكره، مع القريب والبعيد، مع الصديق والعدو، مع المسلم والكافر، مع المسالم

(١) سبق تخريجه فى ص (٤٢).

والمحارب، العدل للناس جميعا، هذا هو عدل الله لكل عباد الله، وهذا ما ينبغى أن يراعيه المسلم، يقول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ** .. ﴾ [النساء: ١٣٥] هذا عدل مع من تحب.

ويقول فى الآية الأخرى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا** .. ﴾ [المائدة: ٨] لا يحملنكم شنآنهم يعنى: شدة بغضهم لكم، أو شدة بغضكم لهم، لا يحملنكم هذا على ألا تعدلوا ﴿ .. **اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ** .. ﴾ [المائدة: ٨] العدل مع الجميع.

ولما حاول اليهود أن يَرْشوا سيدنا عبد الله بن رواحة، وهو يُقَدِّر ما يجب عليهم فى النخيل، كانوا قد عاملهم النبى ﷺ على أن يزرعوا الأرض ويعطوا النبى النصف ولهم النصف، وكانت طريقتهم: خَرْص النخيل، يعنى تقدير ثمر النخيل تقديرا تقريبيا، كم تحمل النخلة، وكان الرسول ﷺ يترك لهم الحرية فى الأكل من النخيل أو التصرف فيه بعد الخرص. ووَكَل النبى ﷺ أمر هذا التقدير للخبراء، وكان من هؤلاء الخبراء: سيدنا عبد الله بن رواحة، فأراد اليهود – على طريقتهم – أن يرشوه حتى يقلل ما يجب عليهم من النخيل، فقال لهم: يا أعداء الله ترشوننى! والله لأنتم أبغض إلى من القردة والخنازير، ولرسول الله أحب إلىَّ من نفسى، ولكنى والله لا أحيف عليكم مثقال ذرة! فقالوا: هذا هو العدل الذى به قامت السماوات والأرض![1]

العدل مع الناس جميعا، بهذا غرس الإسلام روح التسامح مع المخالفين، فلا يضيق المسلم بمن يخالفه، يعاملهم بالعدل والرحمة والقسطاس المستقيم، ويعلم أن الأرض تسعه وتسعهم.

التعددية الثقافية:

هذه هى التعددية الدينية، والتعددية الدينية تترتب عليها تعددية ثقافية، فما دام الناس يتعددون دينيا فلا بد أن يتعددوا ثقافيا، هناك من الناحية الثقافية

---

(١) رواه ابن حبان فى الصحيح والبيهقى فى الكبرى عن ابن عمر وذكره ابن كثير فى التفسير.

ما يتصل بالحياة ومفاهيمها، وتقاليدها، وعادات الناس فيها، الناس تختلف فى هذه الأمور كلها يختلفون فى ملابسهم، ومآكلهم، ومشاربهم، ومساكنهم، لكل جماعة طريقة اتخذتها، ناس تأكل أشياء، وناس ترى هذا الأشياء سيئة جدا لا تؤكل، ناس تبنى بيوتها بطريقة، وناس تبنى بطريقة أخرى، ناس تتكلم بلغة وتكتبها بطريقة، والآخرون يكتبون بطريقة أخرى، هناك من يكتب اللغة بطريقة الخطوط، والحروف عبارة عن خطوط، وناس تكتبها فى خطوط ونقط فوقها وتحتها كما هى العربية. وناس تكتب اللغة بالصور يعنى حروفها عبارة عن صور مثل: اليابانية والصينية والكورية. وناس تكتب من اليمين إلى الشمال. وناس تكتب من الشمال إلى اليمين. وناس تكتب من فوق إلى أسفل كتابة رأسية. الناس يختلفون فى هذه الأمور.

والإسلام قدر هذا الاختلاف فى ثقافة الناس، ووسع هؤلاء جميعا، وكان فى الحضارة الإسلامية، وفى الديار الإسلامية أناس من كل هذه الأنواع، لم يفرض على الناس لونا معينا من المآكل أو المشارب، تريد أن تأكل بطريقة معينة، كلْ كما شئت، تلبس لباسا معينا، البس كما شئت، ما فرض على الناس شيئا من التقاليد يجب أن يفعلوه مجاراة للمسلمين حتى لا يتميزوا عن المسلمين. الناس لهم الحرية فى ثقافاتهم وتقاليدهم وأعرافهم وعاداتهم، لم يتدخل المسلمون فى هذا الأمر.

تنوع الثقافات يثرى الحضارة:

والحضارة الإسلامية شاركت فيها أنوع عدّة من العناصر والأجناس والأديان المختلفة، وكل له ثقافة، وكل ترك له بصمة فى ناحية من النواحى، وهذا من التنوع، فالتنوع فيه إثراء وغنى للحضارات، والحضارة التى تقوم على شكل واحد، ولون واحد، وصورة واحدة، هذه الحضارة فقيرة، الحضارة الغنية الخصبة: هى التى تأخذ من الجميع، وتستفيد من الجميع، وتقتبس من الجميع، هذا هو التنوع.

والتنوع ظاهرة كونية، أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ**

مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ..﴾ فاطر: ٢٧، ٢٨] العلماء هم الذين يعرفون أسرار الله فى الكون، يعرفون أسرار اختلاف الألوان، التنوع يعبر عنه القرآن باختلاف الألوان، أى اختلاف الأنواع والأصناف، وبهذا تثرى الحياة، وتزدهر، لا نفرض على الناس لونا واحدا، ونحاول أن نبيد الألوان الأخرى، هذه التعددية الثقافية.

التعددية السياسية والحزبية:

وهناك التعددية الحزبية، التى يتحدثون عنها فى الفكر السياسى والعلوم السياسية، وهو: أن الدولة لا بد أن تسمح بتعدد الأحزاب والجماعات، وهذا ما يتغنَّون به فى النظام الديمقراطى، ويقولون: النظام الديمقراطى هو الذى يسمح بالتعددية السياسية والتعددية الحزبية، وهذا ما جاء به الإسلام من قديم، وترك للناس أن يعبروا عن آرائهم، وأن يخالفوا الحاكم، سواء كان المخالفون أفرادا أم جماعات.

معارضة الأفراد للحاكم:

يقول سيدنا أبو بكر الصديق – خليفة المسلمين الأول –: (إن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى، أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم).

وعمر بن الخطاب يقول: من رأى منكم فىَّ اعوجاجا فليقومنى. فقام بعض الناس وقال: لو رأينا فيك اعوجاجا يا ابن الخطاب لقومناه بحد سيوفنا. لم يقل عمر: اقبضوا على هذا الرجل الإرهابى، ضعوه فى السجون! أو ابحثوا عن مصدر السيوف التى يريد أن يقاومنى بها! لم يقل هذا، بل قال: الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بحد سيفه!

معارضة الأحزاب للحاكم:

وعلى بن أبى طالب كان يعارضه حزب، ولم يكن مجرد أفراد يعارضونه، بل هو فى الواقع: حزب له مبادئه وأفكاره ومنطلقاته، كان يُسمى (حزب الخوارج)، وهو حزب قوى ومسلح، وقامت بينه وبينهم معارك انتصر فيها

عليهم، هذا الحزب له مبادئه فى تكفير مرتكب الكبيرة، وفى معارضة الحكام وغير ذلك.

وحينما أراد على رضى الله عنه أن يحاربهم، عندما قاوموه مقاومة مسلحة، أرسل إليهم قبل ذلك عبد الله بن عباس، ليناقشهم ويجادلهم ويحاجهم، بالمنطق القرآنى، والمنطق الإسلامى، وقد حاجهم فحجهم وغلبهم، ورجع منهم عدة آلاف، وبقى الآخرون مصرين على رأيهم، هؤلاء قالوا لعلى ابن أبى طالب: إن الحكم إلا لله، يريدون: أنه خرج عن المبادىء الشرعية حينما حَكَّم الرجال فى دين الله، فرد عليهم قائلا: كلمة حق يراد بها باطل. صحيح أن الحكم لله، أى التشريع الأعلى لله، ولكن ليس معنى هذا ألا يختار الناس فى شؤونهم من يحكّمونهم فى التزاعات، الله حَكَّم فى نزاعات أقل من هذا شأنا، فقد حكّم فى الأسرة فقال: ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا..** ﴾ [النساء: ٣٥] وفى شؤون الصيد فى حالة الحج والإحرام: ﴿ **.. يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ..** ﴾ [المائدة: ٩٥].

ثم قال لهم على بن أبى طالب: لكم علينا ثلاث:

١ – ألا نمنعكم مساجد الله أن تصلوا فيها معنا.

٢ – وأن نعطيكم حقكم فى الفىء والغنيمة، إذا كانت سيوفكم مع سيوفنا.

٣ – وألا نبدأكم بقتال، أى ما دمتم مغمدين سيوفكم فى جراباتها وأغمادها لا نبدؤكم بقتال[1].

أرأيتم توسعة أكثر من هذه؟ حزب معارض وأفراده مسلحون، لأن الناس فى ذلك الزمن كانت بطبيعة الحال كل معه سلاحه، ولكن قال لهم: لن نبدأكم بقتال، ما دمتم لا تشهرون سيفا على إخوانكم.

---

(١) رواه البيهقى فى الكبرى باب القوم يظهرون رأى الخوارج لم يحل به قتالهم (٨/١٨٤). وابن أبى شيبة فى مصنفه (٧/٥٦٢) وابن عبد البر فى التمهيد (٢٣/٢٣٨) وأصل الحديث فى مسلم فى الزكاة (١٠٦٦) عن عبد الله بن أبى رافع، وليس فيه هذه الأمور الثلاثة.

تسامحنا وتسامحهم ! :

هذه هى التعددية السياسية، الإسلام يقر التعددية بكل ألوانها وصورها، ويعلّم المسلمين: أن الحياة تتسع للمخالف، ولا بد أن يُربَّى الناس على هذه الحقيقة، أن يسع بعضهم بعضا، ويقبل بعضهم بعضا، وتتسع صدورهم لمخالفيهم فى العقيدة، أو فى الفكر، أو فى اللون، أو فى اللسان، أو فى العرق، أو فى الثقافة. يجب أن يُربَّى الناس على هذه الحقيقة.

ولذلك نستغرب أن أوربا التى تقول: إنها أم الديمقراطية وأم الحرية تحاول أن تضغط على بعض مواطنيها حتى يفقدوا شخصيتهم الدينية، وحريتهم الدينية، وتفرض عليهم الأغلبية بقرار منها، ومعنى ذلك: أن تصبح الأكثرية ديكتاتورية مسلّطة تفرض رأيها على الأقلية، وتذيبها بالقوة، ولا تبقى لها أى شخصية دينية أو ثقافية.

لقد كان الإسلام أعرق منهم فى إقامة التعددية بكل ألوانها وبكل صنوفها. ولهذا عاش الناس فى بلاد المسلمين يعرف بعضهم حقوق بعض، ويتسع بعضهم لبعض، ويتفاهم بعضهم مع بعض، ويتعاون بعضهم مع بعض، بقيت المساجد والكنائس، فى كثير من الأحيان متجاورة، يسمح الناس أذان المؤذن، ويسمعون دقّات النواقيس فى بلاد الإسلام، لم يضق صدر المسلمين بهذا، بل بقوا متفاهمين متعاونين، وهذا هو الدين السمح، الدين صاحب الأفق الواسع الرحب، دين الإسلام، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لفهم هذا الدين، وحسن الالتزام به، وحسن الدعوة إليه، إنه سميع قريب مجيب.

● **الخطبة الثانية:**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

شائعة احتساب يوم الجمعة فى قطر يوم عمل:

يعلم الإسلام المسلم أن يكون صادقا فى قوله وفعله ونيته، وألا يشيع إلا الصدق، ولا يكون إلا مع الصادقين، كما قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة: ١١٩].

وحذر من الكذب واعتبره من خصال النفاق، بل من خصال الكفار ﴿**إِنَّمَا**

﴿يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]، وعلى المسلم ألا يقول الكذب أبدا، ينبغى أن يمتنع عن الكذب إلا لضرورات معروفة فى الحرب، أو فى الإصلاح بين الناس، أو فى إرضاء الزوجة، وحذره أيضا من أن يقول الكذب، لا يقول الكذب، ولا ينقل الكذب.

وكثير من الناس لا يتحرى فى نقل الكلام، يسمع كلمة من هنا ومن هناك فيطير بها فى الآفاق، وقد يكون فى هذا الكلام ما يضر بفرد معين، أو يضر بأسرة معينة، أو يضر بفئة فى المجتمع، أو يضر بالمجتمع كله، ولذلك حذر الإسلام من هذا، فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، كثيرا ما يتساهل بعض الناس الطيبين فى نقل الكلام الكذب، وهم لا يعلمون أنه كذب ولكنهم لم يتحروا، المسلم عليه أن يتحرى الصدق، الكلام الذى لا يتأكد من أنه صدق لا يشيعه، أضرب لكم بعض الأمثلة.

كثيرا ما أغيب عن هذا المنبر لظروف معينة، بعضها صحى، وبعضها للأسفار، فيشيع الناس: الشيخ القرضاوى مُنع من الخطابة، ويسألنى بعض الناس: هل منعت؟ فأقول: يا أخى ما منعت، فقد صار لى أكثر من أربعين سنة ما منعنى أحد.

كذلك أسافر بعض الأسابيع فأغيب يوم الأحد عن برنامج (الشريعة والحياة) فيقولون: منع الشيخ، حتى اتصل بى بعض الإخوة يقولون: هل منعت من (الشريعة والحياة)؟ وأحدهم يقول: هل ألغى برنامج (الشريعة والحياة)؟ من قال هذا؟ البرنامج موجود، حتى عندما أغيب يقدم فيه بعض الناس.

الآن اتصل بى بعض الناس ويسألون: هل قطر قررت أن تلغى يوم الجمعة، وتجعله يوم عمل، وتجعل الأجازة يوم السبت ويوم الأحد؟

فقلت: يا أخى هذا لا أصل له، وقد سألت أكثر من شخص من المسؤولين، وليس لهذا أساس من الحقيقة، قطر بلد عربى، وبلد مسلم، يوم كانت قطر تحت الانتداب الإنجليزى، وكان هنا مستشار بريطانى مسموع الكلمة، بقيت قطر

وأجازتها يوم الجمعة، لماذا يشيع الناس هذه الإشاعة عن هذا البلد العربى المسلم ويثيرون البلبلة فى النفوس؟

لا ينبغى للمسلم أن يكون أسير هذه الإشاعات، قطر بلد عربى مسلم أجازته يوم الجمعة، كانت الخميس والجمعة.. ليس هناك مانع أن تصبح الجمعة والسبت، إنما يوم الجمعة هذا يوم أساسى فى هذا البلد، وينبغى أن يعرف الناس هذه الحقيقة، قطر رأست المؤتمر الإسلامى سنوات، وكان لها موقف جيد فى شتى القضايا الإسلامية، ومساعدة البلاد الإسلامية المختلفة، ومساعدة الجمعيات الإسلامية.

فلا ينبغى أن نصدق مثل هذه الإشاعات ونتحرى فيما نقوله وفيما نسمعه، الكاذب آثم، ومشيع الكذب مشاركه فى الإثم، بل ربما كان أكبر إثما منه لأن الذى يقول الكلمة يقولها فى نطاق محدود، والذى يشيعها ينشرها فى الآفاق، ﴿ .. **إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا** .. ﴾ [الحجرات: ٦] التبين والتثبيت هو صفة الإنسان المسلم الذى لا يدور مع كل دائر، ولا يطير مع كل طائر، بل شأنه التثبيت، ومراعاة الصدق، واتباع قول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [التوبة: ١١٩].

* * *

(١٨)
الثقافة الإنسانية المنشودة[١]

● **الخطبة الأولى:**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

الثقافات المغلوطة وأثرها:

ما تعانيه البشرية اليوم من حروب وكروب، ومن آفات وويلات، ومن صراعات لا تنتهي، سببها: الثقافات المغلوطة التي تلقن للناس، وتجعل البشر بعضهم أعداءً لبعض، ويكيد بعضهم لبعض، ويمكر بعضهم ببعض، ويستعلي بعضهم على بعض، ولو أن البشر لقنوا ثقافة سليمة قويمة لهدتهم من ضلالة، وعلمتهم من جهالة، ولعلّمتهم ثقافة الحوار بدل ثقافة الصراع، وثقافة المحبة بدل ثقافة الكراهية، وثقافة السلم بدل ثقافة الحرب، وثقافة التسامح بدل ثقافة التعصب، وثقافة التعايش بدل ثقافة التهاوش، وثقافة التنوع بدل ثقافة الإنفراد، وثقافة المساواة بدل ثقافة الاستكبار، وثقافة الانقياد للحق بدل ثقافة المباهاة بالقوة.

مصدر الثقافة الحقيقية:

لو أن البشر لقنوا هذه الثقافة السليمة النيرة، ما رأينا ما نراه في العالم اليوم، ولكن البشر تقودهم ثقافات شيطانية أفسدت عليهم مفاهيمهم، وأفسدت عليهم سلوكهم، وأفسدت عليهم ضمائرهم، وأفسدت عليهم علاقاتهم، وأفسدت عليهم حياتهم كلها.

الثقافة الحقيقية هي التي تنطلق من منهج قويم، مؤسس على معرفة صحيحة بالإنسان وبالحياة وبالعالم والوجود، ولا يتم هذا إلا بوحي من الله الذي لا يضل ولا ينسى، وهو ما جاء به هذا الدين الخاتم الذي بعث الله به خاتم رسله، وأنزل به آخر كتبه القرآن الكريم، وهدى الناس فيه للتي هي أقوم، وأرشدهم إلى الصراط المستقيم، الذي يسأله الناس ربهم كل يوم سبع عشرة مرة على الأقل

---

(١) ألقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة في ١٧ من ذي القعدة سنة ١٤٢٤ هـ الموافق ٩ من يناير سنة ٢٠٠٤ م.

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٦] الذى لا عوج فيه ولا انحراف، ولكنه يوصل إلى الغاية من أقرب طريق، صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض، هذا الصراط هو الذى يقوم العوج، ويصلح الفساد، ويحيى الضمائر، وينور العقول، ويهدى الناس إلى طريق الحق لا طريق الباطل.

ثقافة الحوار لا الصراع:

يغرس فى الناس ثقافة الحوار، ما يسميه القرآن (الجدال بالتى هى أحسن)، وهو جزء من المنهج الأساسى للدعوة الإسلامية، ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** .. ﴾ [النحل : ١٢٥]، فالمسلمون مأمورون بالحوار، وليس شيئا اختياريا أو تطوعيا لهم، إن شاءوا فعلوه، وإن شاءوا تركوه، لا، بل هو أمر من الله للمسلم بأن يدعو الموافقين بالحكمة والموعظة الحسنة، ويدعو المخالفين بالجدال بالتى هى أحسن، خصوصا أهل الكتاب، فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [العنكبوت : ٤٦]، حصر الجدال فى هذه الطريقة، بمعنى: أنه لو كانت طريقة حسنة وطريقة أحسن منها، فالمسلم مطالب أن يجادل بالتى هى أحسن، الطريقة التى هى أمثل وأجود فى كسب القلوب، وفى كسب الخصوم، وفى تقريب المتباعدين ﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ [العنكبوت : ٤٦]، أى: اذكروا القواسم المشتركة، اذكروا النقاط التى تجمع بينكم وبين خصومكم، لا نقاط التمايز والاختلاف.

هكذا يأمر القرآن أتباعه بهذا الحوار بالحسنى ﴿ **بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ لا بالتى هى أخشن، وهكذا يلقن الإسلام أتباعه ثقافة الحوار، لا ثقافة الصراع، ولا ثقافة الإملاء أو الإكراه، فهو لا يقبل الإكراه، ولا يعترف بنتائجه لو حدث، كما قال تعالى فى القرآن المكى ﴿ .. **أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس : ٩٩] وقال فى القرآن المدنى: ﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** .. ﴾. [البقرة : ٢٥٦]

والقرآن كتاب مليء بالحوار: بين الرسل وأقوامهم، كما ترى فى حوار نوح لقومه، وحوار إبراهيم لقومه، وحواره لأبيه، وحوار موسى لفرعون، وكذلك غيرهم من الرسل.

بل نجد فى القرآن حوار الله تعالى لخلقه، كما فى حواره للملائكة حين أراد أن يخلق آدم ويستخلفه فى الأرض. بل نجد فى القرآن حوار الله جل شأنه مع شر خلقه إبليس، كما فى سورة الأعراف والحجر والإسراء وص.

وبهذا كله تتركز فى العقول والضمائر ثقافة الحوار.

ثقافة السلام لا الحرب:

وكذلك يلقن الإسلام أتباعه ثقافة السلام لا ثقافة الحرب، إنه لا يخوض الحرب إلا مكرها، ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ**.. ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ولكن إذا استطاع أن يتجنب الحرب فبها ونعمت، ولذلك علق الله تعالى فى كتابه على غزوة الأحزاب التى حوصر فيها المسلمون، وأريد فيها تصفيتهم وإبادتهم عن بكرة أبيهم، وجاءوهم من فوقهم، ومن أسفل منهم، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وظن الناس بالله الظنون، القرآن الكريم يعلق على هذه الغزوة، بعد أن أنزل الله جنودا لم يرها الناس، وأرسل على المشركين ريحا خلعت خيامهم، وأكفأت قدورهم، وفعلت بهم ما فعلت، ورجعوا مهزومين، يقول القرآن الكريم معلقا على هذه الأحداث: ﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ**.. ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

الإسلام إذن لا يتشوف للقتال، ولا يتعطش للدماء، بل إذا انتهت معركة بغير دماء فأهلاً ومرحباً، كفى الله المؤمنين القتال. ففى صلح الحديبية أنزل الله سورة الفتح ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** ﴾ [الفتح: ١] وقال أحد الصحابة: أفتح هو يا رسول الله! قال: «نعم هو فتح»[1]، لم يتصور فتحاً بغير حرب، ولكن الرسول قال له هذا، والقرآن أنزل هذه السورة كلها فى هذه القضية ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا**

---

(١) رواه أحمد (١٥٤٧٠) وأبو داود فى الجهاد (٢٧٣٦) عن مجمع بن جارية الإنصارى.

لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح: ١]، ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم.. ﴾ [الفتح: ٢٤] حتى امتن بكف أيدى المؤمنين عن المشركين.

الإسلام يلقن أتباعه ثقافة السلام لا ثقافة الحرب، ولكن إذا اضطر المؤمنون إلى أن يحاربوا دفاعا عن أنفسهم فليكونوا رجالاً، وليبذلوا أرواحهم، وليضعوا رؤوسهم على أكفهم، ولذلك جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن أبى أوفى: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، ولكن إذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[1] لا نتمنى لقاء العدو، ومقارعة السيوف، بل نتمنى السلام والسلامة دائماً، ولكن إذا أجبرنا الأعداء على أن نخوض المعركة: خضناها رجالاً أبطالاً، لا نبخل بنفس ولا بنفيس، ولا نضنّ بغال ولا رخيص فى سبيل ديننا وعقيدتنا.

الإسلام يغرس فى نفس المسلم ثقافة السلام، حتى أن النبى عليه الصلاة والسلام كان يكره كلمة (حرب) ويقول: «أقبح الأسماء حرب ومرة»[2] لا يحب للمسلمين أن يتسموا باسم (حرب) كما كان أهل الجاهلية يفعلون.

ثقافة الحب لا الكراهة:

والإسلام يغرس فى نفس المسلم ثقافة المحبة لا ثقافة الكراهية، يغرس الإسلام فى نفس المسلم أن يحب الله عز وجل، فهو مصدر الجمال، ومصدر الجلال، ومصدر الكمال، ومصدر الإحساس ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ.. ﴾ [النحل: ٥٣]، كل ما ننعم به من خيرات وبركات إنما هى من الله، والإنسان يحب من أحسن إليه، الإنسان أسير الإحسان:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسانُ

فكيف بمن يغدق عليك النعم من رأسك إلى قدميك، من يوم ولدت وإلى أن تموت، ومن قبل أن تولد، حتى وأنت جنين فى بطن أمك نعم الله تعالى عليك

---

(١) رواه البخارى فى الجهاد (٢٩٦٦) ومسلم فى الجهاد (١٧٤٢) وأبو داود فى الجهاد (٢٦١٣) عن عبد الله ابن أبى أوفى.

(٢) رواه أحمد (١٨٥٥٣) وأبو داود فى الأدب (٤٩٥٠) عن أبى وهب الجُشَمى.

تتوالى، أحبوا الله، ﴿ .. وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ .. ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ﴿ .. فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ .. ﴾ [المائدة: ٥٤].

المؤمن يحب ربه عز وجل، ويحب رسوله الذى أتى إليه بهداية الله عز وجل، «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار»(١)، حب الله، وحب رسوله، وحب المؤمنين، ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦]، يحب كل من أحب الله، كل من سار فى طريق الله، كل من سعى فى عمل الخير، يحبه المسلم لأنه موصول بالله، ما دام يحب الله فيحب كل من اتصل حبله بالله.

والإنسان لا يتصل حبله بالله إلا بعمل الصالحات، واستباق الخيرات، واجتناب السيئات، فبحب الله، وحب أحباب الله من المؤمنين: يشيع الخير، ويشيع الحق، وينصر الحق، ويتعاون الناس على البر والتقوى، يحب المسلم الله ويحب المؤمنين.

حتى غير المسلمين ممن لا يعادون المسلمين ولا يحاربونهم: يحبهم المسلم ويتمنى لهم الخير، ويبرهم ويقسط إليهم ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨]، كل من فعل خيرا أحبه المسلمون ولو كان غير مسلم، كل من أسدى معروفا، كل من قدم خدمة للإنسانية يضمر له المسلم الخير، حتى الكافر يشفق المسلم عليه، ويتمنى له الهداية، ويسأل الله أن يختم له بخير، لا يعادى إلا من عادى الله ورسوله، ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ

(١) رواه البخارى فى الإيمان (١٦) ومسلم فى الإيمان (٤٣) والنسائى (٤٩٨٧) وابن ماجة (٤٠٣٣) عن أنس بن مالك.

حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] المسلم ينظر إلى أبناء البشر جميعاً – على اختلاف أجناسهم وألوانهم – على أنهم أسرة واحدة، وأنهم إخوانه فى الإنسانية، وصلتهم رحم البنوة لآدم. وفى هذا يقرأ المسلم هذا النداء الربانى الشامل فى أول سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١] وما أجدر كلمة (الأرحام) المذكورة فى هذه الآية: أن تشمل – فيما تشمل – الأرحام الإنسانية العامة بدلالة السياق، واقتضاء المقام، فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿..الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ..﴾ ومن هذه النفس الواحدة تفرعت الذرية كلها هناك رحم مشتركة بين بنى الإنسان جميعا، وكما قال الشاعر المسلم:

إذا كان أصلى من تراب فكلها بلادى وكل العالمين أقاربى

هذا هو الأفق الواسع الذى ينظر منه المسلم، الإسلام يغرس فى نفس المسلم حب الله، وحب رسوله، وحب المؤمنين، وحب الإنسانية، وحب الحياة، وحب الموت، يحب كل ما حوله، حتى إن الرسول عليه الصلاة والسلام حينما قدم من تبوك، وبدت له المدينة من بعيد قال: «هذه طابة – وطابة أو طيْبة هى المدينة – وهذا أحد، جبل يحبنا ونحبه»[1]، انظر إلى هذا الوجدان الحى، إلى هذا القلب الكبير، الذى يقول عن جبل من جبال الطبيعة، وقعت تحته واقعة انكسر فيها المسلمون، وفقدوا فيها من فقدوا، فقدوا سبعين من أبطالهم، منهم: عم رسول الله، وأسد الله، وأسد رسوله: حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وفلان وفلان من الصحابة الكرام، كان يمكن أن يتطيَّر أو يتشاءم من هذا الجبل، ولكنه قال: «هذا أحد جبل يحبنا ونحبه» يا عجبا، كأن للجبل قلبا، وكأن له مشاعر وأحاسيس، فهو يُحِب ويُحَبُّ، هذا جبل يحبنا ونحبه. وهذه هى الثقافة التى يغرسها الإسلام.

---

(١) رواه البخارى (٢٨٨٩) و(٣٣٦٧) وفى مواضع أخرى، ومسلم (١٣٦٥) عن أنس ابن مالك.

ثقافة التنوع لا الانفراد:

كما يغرس الإسلام فى نفس المسلم: ثقافة التنوع، لا الثقافة الأحادية التى ترفض كل ما سواها، ولا تسمح له بالعيش معها. وقد حدثتكم منذ جمعتين عن التعددية، الإسلام يقر التعددية، يقر ظاهرة التعدد والتنوع واختلاف الألوان، ولا يفرض لونا واحدا على الناس، فالناس تختلف أديانهم، وتختلف أعراقهم، وتختلف ألوانهم، وتختلف ألسنتهم، وتختلف بلادهم وأوطانهم، وتختلف ثقافاتهم، هذا التنوع حقيقة من حقائق الكون، فعلى الإنسان المسلم أن يقر بهذه الحقيقة الكونية، والحقيقة البشرية، ولا يحاول أن يفرض لونا واحدا على الناس، ويلغى ما عداه من الألوان والأنواع، كما تريد أن تفعل بعض القوى العظمى الآن، تريد أن تفرض نوعا من الثقافة، ونوعا من التقاليد، وتجبر الآخرين على أن يلغوا ثقافاتهم، ويلغوا تقاليدهم، ويخرجوا عن دينهم، ليخضعوا لمنظومتهم القيمية والفكرية! هذه ليست ثقافة سوية، ولا ثقافة مَرْضية.

الإسلام يغرس التنوع، لا يجوز أن تنفرد ثقافة واحدة، ولا ينفرد دين واحد، ولا ينفرد لسان واحد، أو لغة واحدة لتفرض على الناس ويلغى ما عداها. فالإسلام لا يقبل هذا، الإسلام يغرس ظاهرة التنوع وقبول هذا التنوع فى البشر، لأن الله هو الذى أراد هذا ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ..** ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

ثقافة التسامح لا التعصب:

ويغرس الإسلام كذلك فى أنفس أتباعه: ثقافة التسامح لا التعصب.

فهو رغم أنه يلقن أتباعه أنه دين الحق، وهو الدين المقبول عند الله ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ..** ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ** ﴾ [آل عمران: ٨٥]. رغم هذا، يلقّن المسلم مفاهيم أساسية يعتقدها ويؤمن بها، لا تثمر إلا التسامح، نذكر منها:

١ - اعتقاد المسلم أن اختلاف البشر لا بد منه، وأنه واقع بمشيئة الله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس: ٩٩].

٢ – اعتقاد المسلم أن الذى يحاسب الناس على ضلالهم إذا ضلوا، أو كفرهم إذا كفروا هو الله تعالى، وأن موعد ذلك هو الدار الآخرة لا هذه الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾. [الحج: ١٧]

ولهذا أمر المسلم أن يقول لمخالفيه فى العقيدة: ﴿ . . **اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ** ﴾. [الشورى: ١٥]

ولهذا رأينا المسلمين فى تاريخهم أكثر الأمم تسامحا مع مخالفيهم، ولا سيما فى أيام قوتهم، وعظمة دولتهم. فقد ضربوا أمثلة رائعة فى التسامح سجلها التاريخ[١].

ثقافة المساواة لا الاستعلاء:

ويغرس الإسلام المساواة بين الناس، لا ثقافة الاستعلاء والغطرسة وازدراء الآخرين: أن ينظر الإنسان إلى نفسه نظرة استعلاء واستكبار، وينظر إلى الآخرين نظرة ازدراء واحتقار، لم هذا؟ أخلقت – أيها الإنسان المستكبر – من ذهب، وخلقتُ أنا من تراب؟ لماذا هذا التكبر؟ أيجرى على الموت ولا يجرى عليك؟ أتسرى على الأمراض ولا تسرى عليك؟ أتحكمنى السنن الكونية ولا تحكمك؟ نحن فى البشرية سواء، نخضع جميعا لسنن الله فى الصحة والمرض، والحياة والموت، ويتعاقب علينا الليل والنهار، والصيف ، والشتاء، لماذا يستكبر بعض الناس على بعض؟ هذا ما ينكره الإسلام.

الإسلام يغرس المساواة، فالناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربى على عجمى، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، ﴿ . . **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** . . ﴾ [الحجرات: ١٣]، فالأكرمية هنا عند الله، فلا يجوز أن تقول: أنا أكرم منك،

---

(١) انظر فى ذلك: كتاب (التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام) للشيخ محمد الغزالى طبعة دار التوزيع والنشر الإسلامية، وكتاب (تاريخنا المفترى عليه) للشيخ يوسف القرضاوى فصل: (التسامح الدينى) من باب (تاريخ له مآثر) طبعة دار الشروق بالقاهرة.

لأنى أتقى، لا، كرامتك عند الله، والتقى لا يقول: أنا تقي، لأن التقي دائما يخاف على نفسه، يعمل الحسنات ويقول: أخشى أن لا تقبل منى، بينما المنافق يعمل السيئات ويقول: أطمع أن يغفر لى.

فالمساواة فريضة فرضها الإسلام، سوى بين الناس، ففى العبادات: نجد الكل يقف أمام الله عز وجل فى صفوف، لا تمييز فيها بين غنى وفقير، ولا بين كبير وصغير، ولا بين مأمور وأمير، الكل يقف فى صف الصلاة بجوار أخيه، لا تميز لأحد على أحد. فى الحج يلبس الجميع هذه الثياب البيضاء، التى هى أشبه بأكفان الموتى.

هذا ما يغرسه الإسلام فى عباداته، الناس سواسية، فى معاملاته الناس سواسية، فى عقوباته كذلك، يقول النبى ﷺ: «إنما هلك من كان قبلكم: أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[1] أعاذها الله من ذلك، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.

وقبل أن يموت قال: «أيها الناس: من كنت أخذت له مالا فليأتنى ليأخذ ماله، ومن كنت جلدت ظهره فهذا ظهرى فليستقد منى - يقتص منى - ولا يخشى الشحناء، فإنها ليست من شأنى»[2].

وهكذا أقر أصحابه هذه المساواة بين الناس بعضهم وبعض، ليس فى الإسلام تفاضل، التفاضل عند الله عز وجل، ولكن الحقوق مقرة للجميع، أتى رجل من مصر إلى عمر بن الخطاب ليشكو الوالى وابن الوالى الذى ضربه، فيقتص له منه، ويقول للولد المضروب: إن شئت فأدرها على صلعة عمرو، فإنما ضربك بسلطان أبيه! فيقول: يا أمير المؤمنين إنما ضربت من ضربنى، ثم يلتفت إلى عمرو ويقول: يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟

---

(١) سبق تخريجه فى ص (٢٨).

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير وأبو يعلى بنحوه قال الهيثمى: فى إسناد أبى يعلى عطاء بن مسلم وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه جماعة، وبقية رجال أبى يعلى ثقات. وفى إسناد الطبرانى من لم أعرفهم (٩/٢٦).

هذه الكلمة التى قالها ابن الخطاب على البديهة، أصبحت تفتتح بها مواثيق حقوق الإنسان، أول مادة فى ميثاق حقوق الإنسان: (يولد الناس أحراراً متساويين) أخذوها من فم ابن الخطاب على البديهة بدون تحضير، هذا هو الإسلام.

والعجيب: أن هذا الرجل لم يسلم، يعنى أخذ حقه وبقى على دينه، لم يجبره أحد على ترك دينه، والأعجب أيضا: أن مثل هذا الرجل فى مصر كان يضرب ويهان، ويؤخذ ماله، وتصادر أملاكه، ويفعل به ما يفعل، ولا يحرك ساكنا، ولا يرفع رأسه أيام الرومان، حينما كان الرومان يحكمون مصر - وهم مسيحيون مثل أهل مصر، ولكنهم مختلفون فى المذهب - كان هذا الرجل وأمثاله تنزل بهم المظالم الكبيرة والغليظة، ولا يفكر أحد أن يشتكى، لمن يشتكى؟ إن الذى يشتكيه هو الذى يظلمه ويقر الظلم، ولكنه هنا اشتكى إلى ابن الخطاب وكلف نفسه رحلة من الفسطاط، من مصر القديمة إلى المدينة المنورة، شهراً ذهاباً، وشهراً إياباً.

الإسلام يقر ثقافة المساواة، ولا يقر ثقافة التميز بين الناس، ولا ثقافة الاستكبار والاستعلاء بغير الحق، كما نرى بعض القوى فى عصرنا تستكبر فى الأرض بغير الحق، وتقول: من أشد منّا قوة؟ كما قالت عاد قوم هود من قبل: ﴿**مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ..**﴾ [فصلت: ١٥].

ثقافة التعايش لا التهاوش:

وكذلك يغرس الإسلام فى الأنفس (ثقافة التعايش) هذه الثقافة التى تنشىء علاقات تواصل وتقارب وتفاهم بين الناس، تخلق جوا للتفاهم والتعايش، بدلا من التصادم والتهاوش. يمكن أن نختلف ولكن يمكن أن يعيش بعضنا مع بعض، الحياة تتسع لنا، الكون الكبير الذى خلقه الله على هذه السعة يتسع للإنسان ومخالفه، لا مانع أن تكون كافرا، وأن أكون مسلما، والحياة تسعنا، هكذا قال القرآن: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ**

عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [سورة الكافرون].

قمة الاعتزاز بالعقيدة والتمسك بها، ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ هذه مساومة لا تقبل، هذه مفاوضة مرفوضة، وهذه قضية محسومة، التوحيد هو روح وجودنا ولا نحيد عنه، ولا نقبل التنازل عنه، ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ولكن: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ نعم لك دينك، ولى دينى، ولكن المشكلة حينما يقف الآخرون يقولون لك: لنا عملنا وليس لك عملك ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٤١]، ولكن هؤلاء يقولون: لا، لنا عملنا، وليس لك عملك، ليس لك حرية فى دينك، وليس لك حرية فى دعوتك، وليس لك أن تتصرف، الطرق مسدودة عليك، والأبواب مغلقة دونك، وهذا ما يرفض.

شرط ثقافة التعايش مع الآخرين:

الإسلام يقبل التعايش مع الآخرين، بشرط: أن يتركوا له حرية دعوته، أن يترك له مساحة ليقول للناس ما يريد أن يقول، أما أن يصادر، وأما أن يلجم دعاته، ويمنعوا من أن يبلغوا دعوته إلى الناس، ويضطهد ويؤذى من دخل فيه، فبهذا تكون الفتنة، ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ.. ﴾ [الأنفال: ٣٩]، إذا فتن الناس فى دينهم، إذا منعوا من أن يظهروا شعائرهم، أو أن يعتنقوا الدعوة التى يؤمنون بها، وقاوم الناس حقهم بالسيف وبالقوة، فهنا لابد للإسلام أن يدافع عن نفسه، وهذا أمر مشروع، ليس معنى السلام: أن نطأطىء الرؤوس، وأن نحنى الظهور، وأن نقبل الضيم، هذا أمر مرفوض.

بهذه الأنواع من الثقافات يغرس الإسلام فى أنفس المسلمين أن يتعايشوا مع الآخرين، أن يفتحوا صفحات للحوار والتفاهم، والتعاون معهم على البر والتقوى، أما أن يريد الآخرون أن يحجروا على المسلمين، وأن يتمتعوا هم بالتصرف فى كل شىء، وأن يعتبروا الكون كله ملكا لهم، وأن يعتبروا الناس عبيدا أو كالعبيد

لا دين إلا دينهم، ولا ثقافة إلا ثقافتهم، ولا مفاهيم إلا مفاهيمهم، ولا حضارة إلا حضارتهم، فهذا هو العدوان، وهذا هو التجبر، وهذا هو الاستكبار فى الأرض الذى نرفضه.

بيدنا خير دواء:

نحن نفتح صدورنا، ونفتح أذرعنا للتفاهم مع الناس، والحوار مع الناس، والتعايش مع الناس، كل الناس، نفتح أذرعنا وصدورنا لنتحاور ونتفاهم، ونتعاون معهم فيما فيه الخير للجميع، على أن نتعامل معاملة الند للند، أما أن يعاملونا من فوق، ينظرون إلينا من عل، وكأننا نحن فى السفح، وهم فى القمة، فهذا ما لا نقبله بحال من الأحوال.

إننا خير أمة أخرجت للناس، إننا الأمة الوسط التى تحمل للبشرية النور والهداية، تحمل قارورة الدواء، وتحمل مضخة الإطفاء لهذا السعار الذى أصاب البشرية، هذا الحريق الذى كاد يلتهم أخضرها ويابسها، نحن وحدنا الذين نملك رسالة النور والهداية الربانية، وعندنا وحدنا آخر كلمات الله للبشرية أنزلها فى كتابه الخالد القرآن ﴿ .. **كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾ [هود: ١]، ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾. [فصلت: ٤٢]

نداء للبشرية كلها:

هذا ما ننادى به البشرية كلها، نقوله بوضوح وجلاء وصراحة، ننادى الناس كل الناس، فى الغرب والشرق: أن يتعاملوا معنا على قدم المساواة، أما أن يعتبروا الإسلام دينا للإرهاب وللعنف، ويصفوا المسلمين كلهم بهذا، وكأن الإرهاب والعنف فى بلاد المسلمين وحدهم، وقد رأينا الإرهاب والعنف فى العالم كله، فلماذا يخصون المسلمين؟ هذا هو الافتراء، وهذا هو العدوان، وهذا هو الجبروت الذى يريد أن يفرض نفسه على الناس، وأن يتأله فى الأرض فلا يُسأل عما يفعل، ولا يحاسب على ما يقول.

نحن آمنا بالله وحده ربا، لا نقبل الألوهية لغير الله، لا نبغى غير الله ربا، ولا نتخذ غير الله وليا، ولا نبتغى غير الله حكما ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ**

كُلِّ شَيْءٍ..﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، أقول قولى هذا وأستغفر الله تعالى لى ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم وادعوه يستجب لكم.

● **الخطبة الثانية:**

أما بعد فيا أيها الإخوة:

رثاء الأستاذ مأمون الهضيبى:

نقلت إلينا وكالات الأنباء وفاة المرشد العام للإخوان المسلمين الأستاذ (مأمون حسن الهضيبى)، الذى وافته المنية هذه الليلة، ويصلى عليه بعد صلاة الجمعة إن شاء الله هذا اليوم، كان الأستاذ مأمون الهضيبى قد بويع مرشداً للإخوان منذ رمضان قبل الماضى، وتولى قيادة الدعوة الإسلامية فى مصر، ولكن لم يمهله القدر.

هذا الرجل الذى عُذّب فى الله، وأوذى فى الله هو وأسرته جميعا، هو ووالده وإخوانه كلهم أوذوا فى الله سنة (١٩٥٤م)، وفى سنة (١٩٦٥م)، لكن هذه الأسرة عرفت بالصبر والجلاد والثبات، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله، وما ضعفوا وما استكانوا، والله يحب الصابرين.

كان والده الأستاذ الهضيبى المرشد الثانى للإخوان - بعد مؤسس الجماعة حسن البنّا - قد لاقى ما لاقى فى سجنه رغم شيخوخته وكبر سنه ورغم أنه ممن نشأ بعيدا عن هذا الجو، وعن هذه العقبات والمصائب، كان قاضيا فى محكمة النقض والإبرام، ومن كبار الشخصيات، ولكنه حينما تحمل الدعوة، تحملها صابرا مصابرا، وكذلك حملها ابنه رحمه الله، وعاش لهذه الدعوة، ومات عليها، وقدم لها أغلى ما يملك الإنسان، رغم أن حمل هذه الدعوة فى هذه الظروف ليس مغنما، ولكنه مغرم، ليس استفادة ولكنها تضحية، الذى يحمل هذه الدعوة فى

هذه الأجواء والعالم كله يقف ضد الإسلام، العالم الغربى والقوى الكبرى تصادر حق هذا الدين فى الدعوة، وحتى فى بلادنا للأسف يقف الإسلام محروما من حقه فى التعبير عن نفسه، فى كثير من البلاد، وفى بعض البلاد؛ يحارب حتى من عبّر عن نفسه، حتى المسلمة التى تعبر عن نفسها بلبس خمار على رأسها تمنع، بهذا احتج علينا الفرنسيون، قالوا: إذا كان عندكم فى بلاد المسلمين من يمنع هذا لماذا تنكرون علينا؟!

قيادة الإخوان مغرم لا مغنم:

من حمل لواء الدعوة ومنصب المرشد العام فى هذه الظروف فإنه يحمل مغرما لا مغنما، ويتعرض لبلاء لا يصبر عليه إلا ذو حظ عظيم، إننا نتمنى للإخوان المسلمين أن يوفقوا فى مسيرتهم القادمة، أن يختاروا قيادة من جيل الوسط، الجيل الذى يحمل حماسة الشباب وحكمة الشيوخ، القيادات التاريخية الكبيرة أعتقد أنها انتهت بوفاة الأستاذ مأمون الهضيبى، وأملنا فى الشباب الذى قرب من الكهولة أيضا، هؤلاء الذين عليهم أن يحملوا الراية، ويحملوا اللواء، ويتقدموا بالسفينة بين هذه الأمواج المتلاطمة من هنا وهناك، من شرق وغرب، ومن شمال وجنوب، نسأل الله لهم الهداية، ونسأل الله أن يسدد خطاهم، وينور الطريق لكل العاملين للإسلام.

سنصلى إن شاء الله صلاة الغائب على روح الأستاذ الهضيبى بعد أن نفرغ من صلاة الجمعة.

* * *

(١٩)
الإصلاح الذى ننشده
أهدافه وشروطه ومجالاته[١]

● **الخطبة الأولى:**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

حيثما يمَّمت وجهك فى أى بلد من بلاد الإسلام: وجدت الناس يتحدثون عن أمر مهم، يدعون إليه وينادون به، إنه الإصلاح. الصحف تتحدث عن الإصلاح، والإذاعة والتلفاز وأجهزة الإعلام تتحدث عن الإصلاح، العلماء والمعلمون والمربون والمفكرون يتحدثون عن الإصلاح، جمعيات تتكون تحت عنوان الإصلاح، أحزاب تنشأ باسم الإصلاح، حوارات وندوات ومؤتمرات تعقد كلها من أجل الإصلاح، فما هذا الإصلاح؟ ما المراد من الإصلاح الذى ينادى به الجميع؟ حتى الأمريكان - الذين يتحكمون فى مصاير العالم - يطالبوننا بالإصلاح، يدعوننا إلى الإصلاح. لابد إذن أن نعرف ما المراد بالإصلاح الذى ننادى به نحن وينادى به غيرنا؟ قوى الداخل والخارج تطالب بالإصلاح، فهل هناك شىء اسمه الإصلاح؟ وهل هناك حاجة إلى الإصلاح؟ وما هذا الإصلاح؟ وما أهدافه؟ وما شروطه؟ وما مجالاته؟ هذا ما نودّ أن نتحدث عنه فى خطبتنا اليوم.

ما المراد بالإصلاح؟:

الإصلاح: أن تحول الشىء الفاسد إلى شىء صالح، أو تحول الإنسان الفاسد إلى إنسان صالح، أو المجتمع الفاسد إلى مجتمع صالح، أو الأمة الفاسدة إلى أمة صالحة، هذا هو الإصلاح، ولهذا نحن نرحب بالإصلاح - بوصفنا مسلمين - نحب الإصلاح ونكره الإفساد، والله عز وجل ﴿ **لا يُحِبُّ الْفَسَادَ** ﴾. و﴿ **لا يُحِبُّ**

---

(١) ألقيت فى مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، فى ٢٤ من ذى القعدة ١٤٢٤ هـ الموافق ١٦ من يناير ٢٠٠٤م.

الْمُفْسِدِينَ﴾، و﴿لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾، ويعاقب المفسدين وينزل عليهم نقمه، حتى إن بنى إسرائيل حينما أفسدوا فى الأرض مرتين سلط الله عليهم من يقهرهم ويذلهم ويجوس خلال ديارهم، وكلما عادوا إلى الإفساد عاد الله عليهم بالعقوبة ﴿.. وإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا..﴾ [الإسراء: ٨].

من ألوان الإفساد: الإفساد السياسى وأعوانه:

الإسلام يكره الفساد والإفساد، والقرآن الكريم لمن يقرأه ويتأمله ذكر أنواعاً من الإفساد، هناك الإفساد السياسى، كذلك الذى قام به فرعون حينما قهر طائفة من رعيته، استذلهم وحرمهم حقوقهم الفطرية، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤] هذا إفساد سياسى.

ومثل هذا الإفساد السياسى: ما يقوم به بعض الناس من خداع للجماهير، لخدمة السلطة، كالذى يفعله المستأجرون من الصحفيين والإعلاميين، الأبواق المستأجرة. كالذى كان يقوم به سحرة فرعون قبل أن يؤمنوا، وقد قال لهم موسى: ﴿.. مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

ومن الإفساد السياسى: ما يقوم به الاستعمار حينما يدخل بلداً، فيذل العباد، ويفسد البلاد، كما أشار القرآن إلى ذلك على لسان ملكة سبأ: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا (أى إذا دخلوها فاتحين) وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]، هذا إفساد سياسى.

الإفساد الاقتصادى:

وهناك إفساد اقتصادى أشار إليه القرآن، كالذى كان يفعله أهل مدين وأصحاب الأيكة، الذين أرسل إليهم شعيب، وقال لهم: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١ - ١٨٣]، هذا إفساد اقتصادى،

أن يتصرف الناس فى المال بما لا يتفق مع القيم الأخلاقية والمصلحة الاجتماعية، كما قال قوم قارون لقارون: ﴿ ..لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [القصص: ٧٦] أى لا تبطر بمالك ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ ﴾ [القصص: ٧٧]، لا تبغ الفساد فى الأرض بمالك، لا تجعل مالك وسيلة للفساد والإفساد، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧].

الإفساد الأخلاقى:

هناك إفساد أخلاقى، كالذى قام به قوم لوط حينما قلبوا الفطرة واتخذوا الذكور محلاً للشهوة، وقال لهم: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]، هؤلاء الناس الذين أتوا هذه الفاحشة، التى ما سبقهم بها من أحد من العالمين، فاستحقوا نقمة الله، قال لهم لوط: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩، ٣٠]، وأى فساد أشد من هذا الفساد.

ذو الوجهين:

ومن الفساد الأخلاقى: أن يعيش الإنسان بشخصية مزدوجة، له وجهان، وله لسانان، وجه يقابل به جماعة، ووجه آخر يقابل به غيرهم، لسان لهؤلاء، ولسان لهؤلاء، مذبذبين بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

الإفساد الاجتماعى:

هناك فساد أخلاقى، وهناك فساد اجتماعى، إشاعة فساد ذات البين، تقطيع الروابط بين الناس، كالذين قال الله فيهم: ﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ

الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧]، ويقول: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

الإفساد البيئى:

هناك أنواع كثيرة من الإفساد، منها أيضا: الإفساد البيئى، أن يفسد الإنسان الأرض التى خلقها الله له لينتفع بخيراتها، ويستمتع بطيباتها، فيلوثها بالملوثات المختلفة، ويفسد مكوناتها من الأرض والنبات والهواء والماء والحيوان والإنسان، والله تعالى يقول: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا..﴾ [**الأعراف**: ٥٦] أى بعد أن أصلحها الله، وهيأها لكم لتمشوا فى مناكبها، وتأكلوا من زرقه، هذا كله من الإفساد فى الأرض. وكما قال موسى لقومه: ﴿..كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

الإفساد الأمنى:

هناك الإفساد الأمنى، إشاعة الجرائم، وإخافة السبيل بالسرقة الصغرى، أو السرقة الكبرى التى يسمونها الحرابة وقطع الطريق، ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣]، هذا نوع من الفساد فى أمن الناس، وهذا ما كان يقوم به اليهود ﴿..كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا..﴾ [المائدة: ٦٤].

والذى كان يقوم به يأجوج ومأجوج ﴿..إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ..﴾ [الكهف: ٩٤] كل هذه الأنواع من الإفسادات ذكرها القرآن الكريم وأنكر على أصحابها ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

لهذا ننكر الفساد وندعو إلى الإصلاح:

ولذلك نحن المسلمين نكره الفساد، والإفساد والمفسدين، الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون، كما قال صالح لقومه: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ* وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ* الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ**﴾ [الشعراء: ١٥٠ - ١٥٢]، نحب الصلاح والإصلاح، ونكره الفساد والإفساد، ولهذا فنحن أول من يستجيب لدعوة الإصلاح، يجب أن نصلح من أنفسنا، ولا يجوز أن نبقى على حالة الفساد التى نحن فيها.

الناس يتنادون بالإصلاح فى كل مكان، ما سر هذا؟ سر هذا شعورهم بحالة الخلل والتفكك والتمزق الذى تعانيها مجتمعاتنا، وتعانيها أمتنا، لا من المحيط إلى الخليج فحسب، بل من المحيط إلى المحيط، من المحيط الهادى إلى المحيط الأطلسى، من جاكرتا إلى الرباط، الأمة كلها تعانى الفساد، ولهذا هى فى حاجة إلى الإصلاح، ويجب أن تصلح الأمة من نفسها، بدل أن يسعى غيرها إلى إصلاحها، لأنها إذا أصلحت نفسها تصلح نفسها لنفسها، لذاتها، لأهدافها، لا لأهداف غيرها.

أهداف الإصلاح:

الإصلاح أيها الإخوة: أن نعالج أمراضنا المختلفة، نعالجها من صيدليتنا لا من صيدليات غيرنا، وبتشخيصنا لا بتشخيص أطباء أجانب لنا، وبوصف الدواء من عندنا لا من عند غيرنا، الإصلاح الذى نبتغيه له أهداف، وله شروط، وله مجالات.

من أهداف الإصلاح: أن يكون معبرا عن ذاتية الأمة:

أول أهدافه: أن يكون معبراً عن الأمة، عن ذاتية الأمة، أن يجيب عن هذا السؤال الكبير (من نحن؟) أنحن لنا قيمة؟ أم نحن صفر على الشمال؟ أنحن أمة على الهامش أم فى الصلب؟ أنحن أمة لها رسالة ولها حضارة ولها تاريخ. أم نحن دخلاء على هذا العالم؟ يجب أن نجيب عن هذا، فإذا قلنا: نحن الأمة الوسط، نحن الشهداء على الناس، نحن خير أمة أخرجت للناس، نحن الأمة الخاتمة، نحن أمة الخلود: ترتب على هذا أشياء كثيرة، إذا أردنا أن نصلح الأمة

نصلحها على هذا الأساس: أن نربى الاعتزاز بهذه المعانى فى الأمة، كما قال سيدنا عمر: نحن كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزة بغيره أذلنا الله.

الإصلاح المرفوض:

الأمريكان يريدون لنا أن نصلح أنفسنا، وإذا أصلحنا أنفسنا كما يريد الأمريكان، فلا شك أن الأمريكان يريدون شيئا يحقق لهم مطامع وأهدافا، لا يريدون منا أن نكون أمة قوية، أمة لها رسالة، أمة تقف على رأس القافلة، أمة تقوى من ضعف، وتتعلم من جهل، وترقى من هبوط، وتجتمع من فرقة، لا يريدون لنا ذلك، إنهم يريدون أمة مستأنسة، يقال لها فتسمع، وتؤمر فتطيع، أمة منزوعة السلاح، مكسورة الجناح، مكشوفة الساح، لا تستطيع أن تدافع عن نفسها، أمة بلا مخالب ولا أنياب، أمة تسير فى ركاب الآخرين، وهل هذا ما نريده نحن لأنفسنا؟! لا، ثم لا.

هناك من العلمانيين - ومن يسير فى ركاب الأمريكان وغيرهم - من يريدون الإصلاح، ولكنهم يريدون إصلاح الأمة بأن يفرِّغوها من عناصر القوة والبطولة فيها، أن يجردوها من أسلحتها، أن تسير الأمة وراء الآخرين شبرا بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه، يريدون تجفيف منابع التدين الإيجابى فى الأمة، فى التعليم، فى التربية، فى الإعلام، فى الثقافة، يريدوننا إنسانا غريبا عن أرضه، غريبا عن قومه، بل غريبا عن نفسه!! مسلوخا من جلده، إنسانا متفرنجا - أو خواجة - يلبس دشداشة أهل الخليج، أو جلابية أهل مصر، أو لباس أهل المغرب، ولكن فى داخله خواجة أوروبى أو أمريكانى، يريدون امرأة كذلك تمشى وراء المرأة الغربية، فى زيها وسلوكها وأفكارها وتقاليدها، هذا ما يريده العلمانيون الذين يغربون الأمة باسم التحديث.

الإصلاح المنشود:

نحن ندعو إلى الاجتهاد والتجديد، ونحارب الجمود والتقليد، ونرى الاجتهاد والتجديد لدين الأمة ودنياها: فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع.

نحن لا نقاوم تحديث الأمة، ولكن التحديث فى أى شىء؟ التحديث فى الآليات والوسائل، أما الأهداف فلا تحدث، الأهداف ثابتة، والمرونة فى الوسائل والكيفيات والآليات، ولكن هؤلاء المتغربين والمتأمركين: يريدون أن يغيروا كل شىء فى الأمة، أو كما قال إقبال: إنهم يريدون تجديد الكعبة بجلب حجارة لها من أوربا! أو كما قال الرافعى رحمه الله: إنهم يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر!! لا، نحن نريد أن تتجدد الأمة من داخلها، بأن تنهض الأمة برسالتها، بتحقيق أهدافها هى، أن تكون الأمة كما أراد الله لها، أمة وسطا، شهيدة على الناس، لها مقام الأستاذية بين البشرية، يقول قائلها ما قال ربعى بن عامر: إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

نريد تعبئة الأمة بهذه المشاعر، صحيح أننا ضعفاء، لا نملك ترسانات نووية، ولا نملك أسلحة استراتيجية هائلة، كما يملك الآخرون، ولكننا نملك رسالة سماوية، رسالة روحية، رسالة حضارية، لا يملكها أحد سوانا، وهذا يورثنا العزة التى يجعلنا نباهى بها وننادى ربنا ونقول:

ومما زادنى شرفا وتِيْها وكدت بأخمصى أطأ الثُّريَّا
دخولى تحت قولك يا عبادى وأن أرسلت أحمد لى نبيا

هذه هى أمتنا، وهذا هو الهدف الأول من الإصلاح: أن نعيد الأمة إلى ذاتيتها، أن نغرس فيها هذه المعانى، حتى تشعر بنفسها وتنطلق من ذاتها، لا يحركها غيرها وإنما تحرك نفسها، وإذا عرفت ذلك بَنَتْ سياستها، وبنت اقتصادها، وبنت تعليمها، وبنت إعلامها، وبنت حياتها كلها على هذا الأساس.

هذا هو هدف الإصلاح، إنه إصلاح شامل، وإصلاح جذرى، ليس إصلاحا ترقيعيا، أشبه بالمُسَكِّن الذى يأخذ المريض قرصا ليخفف الألم، والمرض باق كما هو يعمل بين جوانحه، لا، إننا نريد أن نقتلع الأمر من جذوره، الداء من جرثومته، هذا هو الإصلاح الحقيقى.

شروط الإصلاح المنشود:

والإصلاح المنشود له شروط لابد أن تتوافر حتى يحقق هدفه، ويؤتى أكله.

١ - أن يعتمد الإسلام مرجعية له:

أما شروط الإصلاح: فأول شرط له: أن يراعى هذا الهدف، أن ينطلق من أعماق الأمة لا يملى عليها، هناك أناس يريدون الإصلاح الذى يفرض من الخارج، قالوا: لولا الأمريكان ما استطعنا أن نصلح أنفسنا وأن نغير ما بنا. لا يمكن أن يصلح شعب شعباً آخر وأن يكون مخلصاً فى إصلاحه، إلا إذا اتفق هدفه وهدفه، ونحن لنا أهداف وهم لهم أهداف، فكيف نتفق؟ لا يمكن أن يملى الإصلاح من الخارج، الإصلاح المملى من الخارج مشبوه، مشكوك فيه، منهم أبدا، لا يمكن أن ترضى عنه أنفسنا، ولا أن تطمئن إليه قلوبنا، هذا ما لا شك فيه، وكيف يصلحنا قوم قال الله فى أمثالهم: ﴿**يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ..**﴾ [التوبة: ٣٢] ﴿**.. وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا..**﴾ [البقرة: ٢١٧].

٢ - أن يقوم به أهل الحكمة والخبرة:

الإصلاح الحقيقى: أن يبدأ من الأمة، ويقوم عليه علماؤها وحكماؤها، وأولو الرشد من أهلها، مستجيبين للدوافع الشعبية، والرغبات العامة عند الأمة، ولكن لا ينبغى أن يكون الغوغاء هم المتحكمين فى هذا.

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا
والبيت لا يبتنى إلا له عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

والقرآن الكريم يقول: ﴿**.. وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ..**﴾ [النساء: ٨٣] لابد أن يرد الأمر إلى أهل العلم والحكمة، أهل البصيرة فى دين الله، والخبرة بدنيا الناس، الذين ينظرون إلى التراث بعين، وإلى العصر بعين أخرى، الذين يستلهمون الماضى، ويعايشون الحاضر، ويستشرفون المستقبل. لا ينفع فى الإصلاح الجامدون الذين يريدون أن يجمدوا الحياة كالنهر الآسن، لا تتحرك إلى أمام، ولا تتحرك يمنة ولا يسرة، ويقولون: ليس فى الإمكان أبدع مما كان. وما ترك الأول للآخر شيئا. وكل قديم يجب أن يبقى على قدمه. هؤلاء لا يصلحون للإصلاح، وكذلك لا يصلح

لإصلاح الأمة أولئك المتسيبون عبيد الفرنجة، عبيد الفكر الغربى، الذين يريدون أن يسلخوا الأمة من جلدها، وأن ينفرط كل شيء، وأن لا يبقى شيء على حاله، فليس للأمة ثوابت ترجع إليها، ولا مرجعية تتمسك بها، لا، هذا خطر، أول شروط الإصلاح أن نتمسك بمرجعيتنا، وأن ننطلق من ذاتيتنا، ومرجعيتنا: هي الإسلام، وشريعة الإسلام، عليها نعتمد، ومنها نستمد، وبها نعتصم ﴿ ..**ومن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [آل عمران: ١٠١]، هذا ثانى شروط الإصلاح. أول الشروط: أن نعتمد الإسلام، وثانى الشروط: أن نعتمد أهل الحكمة وأهل الخبرة.

٣ - أن يكون الإصلاح شعبيا:

وثالث هذه الشروط: أن يتم الإصلاح بإرادة الشعب، وعن طريقه: أن يريد الإصلاح، ويتقبل الإصلاح، ويتجاوب مع الإصلاح.

أيضاً هناك أناس يطلبون الإصلاح عن طريق انقلابات عسكرية، وهذا لا يمكن أن يؤدى إلى المقصود، الانقلاب العسكرى - حتى وإن قام به أناس مخلصون، وقاده رجل مستقيم المسيرة - لا يؤمن أن يصبح بعد ذلك ديكتاتوراً ومستبدا، ويفرض إرادته على الجميع، ونحن نريد أن ينطلق الإصلاح من الشعب، لا أن يفرض عليه!

هناك أناس يريدون الإصلاح عن طريق ثورة عارمة، وهذا أمر غير مأمون، ما جرى فى إيران أيام الخمينى كانت له ظروفه وأسباب نجاحه، وهيهات أن يتوافر لشعب آخر، وفى مكان آخر، لأن هذه الظروف قلما تتيسر إلا فى النادر، ولذلك الثورات العارمة التى تنطلق كالمارد وكالسيل العارم مخوفة العواقب.

لذلك علينا أن نوعّى الشعب ونثقفه ونربيه، ليؤدى واجبه، ويطالب بحقه، ويدافع عنه، حتى يختار حكامه ويحاسبهم، ويعزلهم عند اللزوم، بغير دماء تراق، بل عن طريق المؤسسات الدستورية.

٤ - أن يبدأ الإصلاح من داخلنا:

ورابع شروط الإصلاح: أن نبدأ من الداخل، أن نقود الإنسان من داخله، من عقله، من ضميره، من نفسه التى بين جنبيه، الإنسان ليس بهيمة تقاد

من آذانها أو من أعناقها، الإنسان يقاد من نفسه، لنبدأ بإيقاظ العقول، وإحياء الضمائر، وتزكية الأنفس، ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا* قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]، غيّر ما بنفسك يتغير التاريخ، هذا منطق القرآن الكريم ﴿ . . **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** . . ﴾ [الرعد: ١١].

هذا ما فعله الأنبياء عليهم السلام، بدأوا بتغيير أنفس الناس وعقولهم، وتصحيح عقائدهم ومفاهيمهم الأساسية، وفكرتهم عن الله، وعن الكون، وعن الإنسان، وعن الحياة، وعن الوجود، وهذا ما فعله محمد ﷺ، صَبَّ في عروق الصحابة هذا الإيمان الجديد، الإيمان بالله ورسالاته، وبالدار الآخرة، وبالرسالة العظمى التي يحملونها للبشرية لهداية الناس، ونفع الناس، هذا أمر مهم: أن نغير ما بالأنفس قبل كل شيء، لابد من القوانين، ولابد من الأنظمة، ولابد من اللوائح، ولكن هذه لا قيمة لها، إذا لم يكن هناك ضمائر تراقب هذه الأشياء وترعاها، وإلا أصبح القانون حبرا على ورق، قال أحد القضاة في قضية شهيرة في بريطانيا، اتهم فيها وزراء بالرشوة والفساد، كتب تقريرا من مئات الصفحات، ثم انتهى فيه إلى قوله: بلا قانون لا تكون أمة، وبلا أخلاق لا يهيمن قانون، وبدون إيمان لا توجد أخلاق. الإيمان هو الذي يحمي هذا كله.

٥ - التدرج:

وهناك بعد ذلك: أن نسير بمنهج التدرج، إن الله بنى الدنيا في ستة أيام، كان قادراً على أن يبنيها في لحظة (كن فيكون) ولكن ليعلمنا الأناة والتدرج، التدرج سنة كونية، وسنة شرعية، ولذلك لابد أن نتدرج في الإصلاح، بشرط: أن يكون أمامنا هدف واضح، وخطة مرسومة، ومراحل معلومة، أما أن يقول بعض الناس: نتدرج ولا يتدرجون، كما قال بعض الحكام: إننا نريد أن نطبق الشريعة بالتدريج، ولكن مرت عليهم عشرات السنين وهم لا يتدرجون، محلّك سرْ، لا ينتقلون من درجة إلى درجة، ولا من خطوة إلى خطوة، ولا من مرحلة إلى مرحلة، هذا ليس تدريجا وإنما هو التمويت لا التدريج.

نريد تدرجا حقيقيا كما قال عمر بن عبد العزيز لابنه حينما تولى الخلافة، وبدأ يعالج أمور الناس بالرفق والأناة، شيئا فشيئا، ويوما فيوما، فقال له ابنه عبد الملك – وكان شابا تقيا مليئا بالحماس والغيرة – قال له: يا أبت مالى أراك تتباطأ فى إنفاذ الأمور، فو الله لا أبالى لو غلت بى وبك القدور فى سبيل الله! يعنى الابن: لو قطعنا ووضعنا فى القدور، وغلت علينا النار تحتها لا نبالى. فقال له أبوه: يا بنى لا تعجل! إن الله ذم الخمر فى القرآن مرتين، ثم حرمها فى الثالثة، وإنى أخشى أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعوه جملة، ويكون من وراء ذلك فتنة، أما يَسُرُّك أنه لا يأتى على أبيك يوم، إلا ويميت فيه بدعة ويحيى سنة؟. هذا هو المهم: أن يميت كل يوم بدعة، ويحيى كل يوم سنة، أما أن يقول: أتدرج ولا يتدرج، فهذا لا يجوز.

مجالات الإصلاح:

هذه شروط الإصلاح، أما مجالات الإصلاح أيها الإخوة: فهى الحياة كلها، الحياة كلها محتاجة إلى إصلاح، التعليم محتاج إلى إصلاح، بحيث لا يخرج الإنسان الذى يصم ويحفظ ولا يفهم، إنما يخرج الإنسان الواعى الفاهم، نريد تعليما حقيقيا.

الإعلام محتاج إلى إصلاح، بحيث لا يفسد الإعلام ما يصلحه المنبر:

متى يبلغ البنيان يوما تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟

الإصلاح السياسى:

السياسة تحتاج إلى إصلاح، وأول ما تحتاج إليه السياسة: إشاعة الحرية بين الناس، أنا أرى أن الأمر الأول الذى يحتاج إليه العرب والمسلمون فى مجتمعاتهم اليوم هو: توطيد الحرية، الحريات العامة ولا سيما الحرية السياسية: أن يستطيع الإنسان أن يختار القائد الذى يحكم بلده، ولا يفرض عليه فرضا بالقوة أو بالتزوير وأن يختار من يمثله فى البرلمان، ويستطيع أن يقول الحق إذا رآه، وأن يأمر بالمعروف، وأن ينهى عن المنكر دون أن تأتى كلاب الصيد فتتخطفه فى منتصف الليل، وتذهب به إلى حيث لا يعلم أحد أين هو، هذا هو الخطر، الحرية السياسة هى أول ما يحتاج إليه الناس.

الإصلاح الاقتصادى:

هناك الإصلاح الاقتصادى، هناك تنمية الإنتاج، وعدالة التوزيع، وترشيد الاستهلاك، وسلامة التداول، هناك ينبغى أن توزع الثروة بالعدل والقسطاس بين الناس، وليس العدل أن يتساوى الجميع، ولكن أن تتاح فرص متكافئة للجميع، وأن يأخذ كل ذى حق حقه. وألا يغرق بعض الناس فى الذهب والحرير، فى حين لا يجد آخرون ما يمسك الرمق.

الإصلاح الاجتماعى والأخلاقى:

هناك إصلاح اجتماعى، وإصلاح أخلاقى، وإصلاح فى كل مجال من المجالات، نريد أن نبدأ الإصلاح فى هذه المجالات، لا يتوقف إصلاح فى مجال على إصلاح فى مجال آخر، كل هذه المجالات قابلة لأن نبدأ فيها متوازية ومتكاملة، حتى نستطيع أن نصل إلى المجتمع الصالح الذى ننشئه. ومن خلال هذه المجتمعات، ننشىء أمة صالحة تقوم بدورها فى هداية العالم، هذا العالم الذى وصل إلى القمر، ووصل إلى المريخ، ولكنه - حتى الآن - لم يسعد نفسه على ظهر هذه الأرض.

المسلمون وحدهم هم القادرون على حمل هذه الرسالة العظيمة إلى البشرية المعذبة، المسلمون بقرآنهم وسنتهم هم الذين يحملون قارورة الدواء التى فيها شفاء البشرية ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** . . ﴾ [الإسراء: ٨٢]، ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس: ٥٧].

أسأل الله أن ينير لنا الطريق، ويهدينا سواء السبيل، وأن يصلحنا، ويصلح بنا، ويهدينا، ويهدى بنا، ويخرجنا من الظلمات إلى النور، إنه سميع قريب.

أقول قولى هذا، وأستغفر الله تعالى لى ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

* * *

● **الخطبة الثانية:**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

انتحار الشباب بالسرعة الجنونية أثناء قيادة السيارات:

قرأت فى صحف الأمس وصحف اليوم: نبأ أربعة شبان من أبناء قطر، ذهبوا ضحية حوادث الطريق، ثلاثة فى سيارة، وواحد فى سيارة، وكلهم فتية فى عمر الزهور، فى ريعان الشباب، ومقتبل العمر، فى السادسة عشرة والسابعة عشرة، وفى كل مدة قريبة نقرأ هذه الأنباء عن شباب اغتالهم الطريق، ذهبوا ضحية السرعة الجنونية فى الطريق، التسابق المجنون بين الشباب بعضهم وبعض.

إلى متى هذا أيها الإخوة؟ من المسؤول عن هذه الحوادث؟ هل المسؤول عن هذا هم الشباب الذين يركبون هذه المركبات، وكثيرا ما لا يكونون يحملون الرخص لأن سنهم لم يتأهل لأخذ الرخصة الرسمية؟ هل هؤلاء الشباب هم المسؤولون؟ أو المجتمع هو المسؤول؟ ابتداء من الأسرة والمدرسة. أى أن المجتمع قصر فى توجيههم وتربيتهم التربية السليمة، وتربية العقل الواعى، والضمير الحى. لم يتربوا التربية الحقيقية المطلوبة التى تعرفهم قيمة أنفسهم، وقيمة الحياة التى منحهم الله إياها؟ هل الإنسان حر فى أن يضيع حياته كما يريد؟ هل هو الذى خلق نفسه؟!

قيمة الحياة:

يجب أن نعلم شبابنا أن أرواحهم هذه هبة من الله لهم، ووديعة من الله فى أيديهم، لا يجوز أن يفرطوا فيها والله تعالى يقول: ﴿ .. **وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا** ﴾ [النساء: ٢٩] ويقول: ﴿ .. **وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** .. ﴾ [البقرة: ١٩٥] إننى أرى هذه السرعات الجنونية – التى كثيرا ما أشاهدها فى الطرقات – نوعا من الانتحار، كأنما هذا السائق ينتحر، إنه لا يبالى بنفسه، ولا يبالى بغيره، كثيرا ما يصاب هو ويصيب غيره، وكثيرا ما يموت، وكثيرا ما يبقى معوقا طوال الحياة؛ لأنه فَقَدَ بعض حواسه، أو فقد بعض أعضائه، أهذه حياة؟!

احترام الحياة والثروة:

ينبغى أن نعلم أبناءنا، وأن نربى أبناءنا على احترام الحياة، حياة نفسه، وحياة غيره، إذا كان الشباب عنده من المال، أو عند أبيه من المال ما يعطيه سيارة يعبث بها، فليس من حقه أن يعبث بذاته، ويعبث بروحه، حتى الأموال لا يجوز العبث بها، إن النبى ﷺ نهى عن إضاعة المال، تدمير هذه السيارات فى غير فائدة، لماذا هذا العبث؟ ولماذا يسمح الآباء بإعطاء السيارات قبل السن اللازمة، القانون حينما حدد ثمانية عشر عاما لم يكن لاهيا ولا لاعبا، إنما أراد أن يبلغ الشاب سنًّا يكون فيها أقدر على التوازن، على التصرف الهادئ العاقل، فلماذا نتجاوز القوانين؟!

إن هذه السيارات نعمة من الله علينا، فلماذا لا نشكر الله عليها؟ لماذا نستخدمها فيما يضرنا ويغضب ربنا؟ لماذا نقابل النعمة بالكفران لا بالشكران؟ والله تعالى يقول: ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ﴾. [إبراهيم: ٧]

نداء للآباء والمسؤولين:

إنى أناشد الآباء، وأناشد الأسر، وأناشد المربين: أن ينصحوا الشباب، أن يتقوا الله فى أنفسهم، ويتقوا الله فى مجتمعاتهم، حرام علينا أن نفقد كل عدة أيام بعض هذا الشباب، حتى قال لى أحد المسؤولين: إن نحو ربع الأموات من الرجال من جراء حوادث الطريق، ربع الأموات!! وهذه نسبة عالية، وأعتقد أن هذه النسبة فى قطر من أعلى النسب فى العالم، هذا ما لا يجوز، أن يذهب هؤلاء مجانا.

بين موتتين:

لو كانت هذه الميتات من أجل هدف رفيع، أو رسالة نبيلة، كنا نرحب بها، أما أن يذهب الشاب مجانا، وكأنه منتحر. هناك ميتات نباركها ونرحب بها، مثل: ميتة الأخت ريم الرياشى، هذه التى فجرت نفسها لتقتل عددا من الإسرائيليين المغتصبين المعتدين، هذا هو الموت الذى نرحب به، أما أن يموت

الإنسان فى غير شيء، فهذا ما لا يجوز، نرحب بهؤلاء الأبطال الاستشهاديين والاستشهاديات، الذين زلزلوا الكيان الصهيونى، والذين روَّعوهم، وقذفوا الرعب فى قلوبهم، إنهم لا يملكون الطائرات، ولا المروحيات، ولا الآليات التى تملكها إسرائيل المعتدية، ولكنهم يملكون رؤوسهم فوضعوها على أكفهم، يملكون أرواحهم فبذلوها رخيصة فى سبيل الله.

حياك الله يا (ريم)، وحياكم الله أيها الأبطال، وثبتكم الله أيها الإخوة فى ربوع فلسطين، الذين يقدمون كل يوم الشهداء وراء الشهداء! يا أبناء فلسطين، يا أبطال هذه الأمة: حياكم الله فى أمة خذلتكم، لم تقدم لكم أرواحا، ولا أموالا، ولا عتادا، ولا سلاحا، وتركتكم لأعدائكم.

حياكم الله يا إخوتنا فى أرض البطولة والصمود والرباط! أسأل الله عز وجل: أن يسدد خطاكم، وأن ينير طريقكم، وأن يثبت على الحق أقدامكم، وأن يلحقنا بشهدائكم فى سبيله، اللهم آمين.

عباد الله: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾ [الأحزاب: ٥٦] اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر، والله يعلم ما تصنعون.

* * *